الدعامات المنهجية للدراسات الجغرافية الحضرية

رجاء ابن ودة

باحثة في الجغرافية البشرية

فاس، المغرب

ملخص

تعتبر الجغرافية عموما والجغرافية البشرية خصوصا، إحدى العلوم المهتمة بدراسة، تحليل، تقاطع، كل من الممارسات السكانية والتدخلات العمومية، واللتان تفرزان مجالات جغرافية متضمنة لتحديات سوسيواقتصادية، تجعل من ممارسات الفاعل التقني والمؤسساتي أهم مواضيع التقييم العلمي الجغرافي. واستحضارا لهذا التأطير المنهجي، تهدف هذه المقالة إلى تحديد وضبط المرتكزات المنهجية المعتمدة في الدراسات الجغرافية الأكاديمية– تخصص الجغرافية البشرية، والتي تثمن دور الباحث في توجيه التدخلات التقنية المؤسساتية نحو إقرار توافق بين الاختيارات العمومية والاختيارات السكانية. لذلك لابد من دمج مهارات الباحث المكتسبة طيلة فترة تكوينه العلمي، وضبطها مع خصوصية الدراسة المنجزة، لكن مع الحفاظ على خطوات النهج الجغرافي الأكاديمي.

كلمات مفاتيح: جغرافية حضرية، بحث أكاديمي، نهج جغرافي، استخلاص نتائج

تقديم

الجغرافيا علم يعرف بالخصائص الطبيعية والبشرية في مجال جغرافي معين، وهذا البعد المكاني مهم جدا، ويعني ذلك أن المنظور الجغرافي يساعد في التعرف على الخصائص المجالية وما تشهده من تغير بيئي وصراع بشري. إن أهمية البحث الجغرافي تكمن في تفاعل عدة مجالات بحياة الإنسان ونشاطاته المختلفة. ذلك أن إعادة اكتشاف الجغرافيا له أهمية كبيرة على المستويين العلمي والاجتماعي، وهذه الأهمية تبلورت من خلال وجهات نظر متجددة لعدد من الجغرافيين الذين يتفاعلون مع العالم المحيط بنا. وتمثيل البعد المكاني قد يكون وصفيا أو كميا حسب المعطيات المكانية، حيث يركز الجغرافيون على المجال الجغرافي من خلال العلاقات والروابط بين الظواهر والعمليات التي يمارسها الإنسان في المكان. ويسعى الجغرافيون إلى فهم العلاقات المكانية، وأهمية الخصائص التي تحدد المكان.

ذلك أن منهجية التحليل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والبيئي وعمليات التفاعل في المكان، تقدم فهما متكاملا ومتميزا في طابعه الجغرافي.

يظهر مما تقدم أن الجغرافيا توفر بيانات ومعلومات على كافة المستويات، تساعد أصحاب القرار في اتخاذ أفضل التدابير، وهذا يعني مساهمة الجغرافيا في رسم سياسة الدولة واتخاذ القرارات ويكون ذلك بطرق متنوعة؛ ومنها نشر نتائج الأبحاث في المجلات المتخصصة والمؤلفات المتنوعة، ويكون لتلك الآراء صدى كبير على القرارات المباشرة، كما تؤثر على المجتمع بشكل عام عندما تتضمن مفاهيم ذات علاقة بمعاشهم. وقد تميزت الجغرافيا عن غيرها بأنها تضم علوم طبيعية وبشرية وهذا ما جعلها تنفرد بتلك الخاصية، فالجغرافيون يسيرون بخطى منتظمة وثابتة تتناسب مع التطور العلمي والتكنولوجي في بناء هياكل نظريات ونماذج وأساليب تكنولوجية تعتمد على المفردات التقنية.

تسعى الجغرافيا إلى تنمية العديد من المهارات التي تساعد الباحث على دراسة المجالات الجغرافية عامة والحضرية خاصة، بهدف استيعاب ما تعرفه هذه المجالات من تحولات سوسيومجالية، واستخلاص نتائج موجهة للفاعلين التقنيين والمؤسساتيين في اتخاذ القرارات العمومية المتوافقة مع الحاجيات الضرورية لساكنة هذه المجالات. لذلك تعتمد الدراسات الجغرافية الأكاديمية في تحليلها للموضوعات المرتبطة بتقييم **"المجالات المعاشة"**، على مجموعة من التقنيات والدعامات المنهجية والتطبيقية، والتي تجعل من الجغرافيا تخصصا منفتحا على عدة فروع علمية كالإحصاء، الهندسة، الكرطوغرافيا، علم الإجتماع..

ولتستجيب الأبحاث والدراسات الجغرافية لهذه الوظيفة المجتمعياتية، ترتكز في بناء نتائجها على مجموعة من الدعامات المنهجية التي تميزها عن باقي الدراسات الإنسانية.

1. تحديد فرضيات وإشكاليات الدراسة

تعد عملية صياغة فرضيات البحث من المهام الأساسية التي يجب أن يؤكد عليها الباحث لتكون دليل عمله في مراحل البحث اللاحقة، والتي تصب في تحقيق هدف الدراسة. وتمثل صياغة الفرضيات اختبار لمدى تصور الباحث لما يمكن أن يتوصل إليه من نتائج، حيث تعبر تلك الفرضيات عن الصورة الواقعية والحقيقية للبحث، بهدف وضع حلول لتلك الإشكالية، وتكون تلك الحلول تصورية وخيالية يعتقد الباحث أنها مناسبة لحل المشاكل، وقد تكون الفرضيات في بعض الأحيان محاولة لقياس علاقة بين متغيرين أو أكثر، غير أنها تعبر عن فكرة في ذهن الباحث، والتي يتم التأكد من مدى صحتها بعد جمع البيانات وتحليلها. لذا يقوم الباحث بوضع عدة فرضيات مع مراعاة ما يلي:

– أن تكون الفرضيات واضحة المعنى ومحددة.

– أن تكون الفرضيات منسجمة مع قواعد وقوانين البحث العلمي.

–أن تهدف الفرضية إلى كشف علاقة بين متغيرين أو ظاهرتين غير واضحة قبل تحليل البيانات.

– أن تكون الفرضيات من استنتاج الباحث، ويقوم باستنباطها من موضوع البحث وعنوانه وهدفه.

2. المقاربات الجغرافية المعتمدة في التحليل المنهجي للدراسات الجغرافية

تعتمد منهجية البحث العلمي الجغرافي على استعمال المناهج والمقاربات المعمول بها، "بحيث تشكل المقاربات الثلاث أنماطا أساسية من طرف البحث الجغرافي الأكاديمي المنفتح على التدخل"، إذ يتم ضبط وتركيز هذا النمط من المقاربات الجغرافية مع الخصوصيات المجالية للمناطق المدروسة والمؤشرات السوسيواقتصادية لساكنة هذه المجالات. ولعل أهم ما يميز المقاربة الأكسيولوجية والمقاربة النمطية والمقاربة الموضوعاتية، هو عدم استغناء الواحدة عن الأخرى بحيث تتكامل فيما بينها، أي لا تنافس الواحدة الأخرى.

1.2. المقاربة التيبولوجية

يتعلق الأمر في المقاربة "التيبولوجية" أو النمطية باستيعاب كيفية اكتساب فاعل ما أو موضوع ما لبعد مجالي متميز، بتسجيل ممارسة الفاعل و/أو دينامية الموضوع داخل حركية التشكيلة الحضرية. ذلك أن المقاربة "التيبولوجية" تحاول التناول الفوقي للظاهرة الجغرافية، والهدف هو التوصل إلى شبكة لقراءة هذا وذاك وإنتاج الأدوات التنظيرية والمنهجية التي تسمح بتعميم دائرة التحليل.

كما ترسل هذه المقاربة أكثر من المقاربتين الجغرافيتين؛ ويتعلق الأمر بالمقاربة الموضوعاتية والمقاربة الأكسيولوجية، إلى النشاط التقليدي للجغرافية الحضرية؛ وهو نشاط أساسي في التقييم والتصنيف، تستند على الدراسة التجريبية (المبنية على الملاحظة والاختبار). ويتم اعتمادها كقاعدة ومنطلق أساسي، بمثابة وفورات عامة للمعرفة الجغرافية، لتحقيق أهداف المقاربتين الأخريتين.

2.2. المقاربة الموضوعاتية

تنطلق هذه المقاربة من تحديد موضوع الإشكال الذي هو غالبا متنوع من حيث طبيعته وأبعاده وتحاول من خلال التحقيق فيه هيكلة "منحاه" داخل الهيئة المجتمعية الحضرية. ويتحدد الانشغال الأساسي لهذه المقاربة في توضيح البعد المجالي للموضوع، هذا البعد الذي يتجاوز حدود الجغرافية المادية. لأن التصورات الحديثة في الحقل الجغرافي، تدرج مجموع المواضيع القابلة للتفكير في الحقل الحضري كيفما كانت طبيعتها؛ بنيوية أو إيديولوجية أو سياسية أو مؤسساتية...، وكيفما كان مقياسها».

3.2.المقاربة الأكسيولوجية

تعتمد المقاربة "الأكسيولوجية" على البعد الإنساني عبر إدماج علم القيم والفعل الإنسانيين، كما يركز نمطها في التقصي على الفاعلين؛ أفرادا، و/أو مؤسساتيين، و/أو مجموعات، والقيم التي يتبنونها وممارساتهم المنتجة "للمجالاتية الحضرية". كما تبحث في " نمط الفعل"المتبع من طرف الأفراد أو الجماعات، وتهدف إلى إبراز أشكال إدراج المجال في "الفعل" أي في التدخل. إذ يعتبر الفكر والبحث الأنجلوسكسوني رائدا فيما يتعلق باستعمال هذه المقاربة، مع التذكير بأن المرجعية الفرنسية في التطبيق العملي للمقاربة على مستوى تنظيم وتنظير التدخل، حاضرة بقوة منذ 1977مع إغنائها وتجديدها خلال فترة التسعينات. في ظل الظرفية العالمية الجديدة الداعية لدمقرطة المؤسسات وإدراج البعد الإنساني في التنمية المستدامة والحكامة الحضرية.

3. التأطير النظري لإشكالية البحث الجغرافي

تقوم هذه المرحلة المهمة من إنجاز الدراسات الجغرافية على مجموعة من الخطوات النظرية المعززة لمكانة البحث المنجز، والمحددة لمكانة نتائجه وقيمته المضافة ضمن باقي الدراسات الجغرافية المنجزة قبله. وتتجلى هذه الخطوات في:

- تحديد إشكالية موضوع الدراسة والذي يتوافق والتكوين العلمي والتراكم المعرفي للباحث.

- اعتماد مجموعة من المصادر البيبليوغرافية التي تعمق المدارك الشخصية للباحث حول موضوع الدراسة.

- معاينة ميدانية متكررة للمناطق المدروسة، و التي يجب أن تكون زيارات متكررة و متواصلة بهدف تشخيص الخصائص المجالية و السوسيواقتصادية المساعدة على صياغة دليل الاستجواب.

- تحديد المؤسسات التقنية العمومية المتدخلة في تدبير المجالات المدروسة خصوصا، والمجالات المحلية والوطنية عموما، ويتم في مرحلة موالية القيام بزيارات متواصلة لهذه المؤسسات بهدف التزود بالوثائق التي تشخص الوضعية التقنية والكمية للظاهرة موضوع الدراسة.

4. استجواب الفاعلين المنخرطين في الظاهرة المدروسة

1.4. منهجية استجواب

تعد المقابلات الشخصية من الوسائل التي تستخدم في ضبط الكثير من المعلومات غير المدونة في الوثائق التقنية، إذ يقوم الباحث بتلك المهمة عبر زيارات إلى الأشخاص المعنيين ويحدد معهم موعدا في وقت معلوم، ويحاول تهيئة الأسئلة التي يريد طرحها على الشخص المعني – فاعل عمومي، ساكن – وقد يعتمد في هذه المرحلة على وسيلة لتدوين المعلومة، أو الارتكاز على ذاكرة الباحث في عملية الاستجواب، بهدف كسب ثقة المستجوب.

ويقوم الباحث بطرح الأسئلة حول الجوانب التي يريد التعرف عليها والتي قد تتعلق بطبيعة النشاط الذي يمارسه الشخص أو المؤسسة المسؤول عنها، وتكون تلك الأسئلة مباشرة. إلا انه عندما يريد الباحث التعرف على بعض الجوانب التي تتعلق بالشخص نفسه فعليه أن يكون دقيقا في طرح صيغة السؤال، ويبتعد عن صيغة المخاطبة الشخصية، إذ ربما يعتبرها الشخص المستجوب أمورا خاصة لن تفيد الباحث في دراسته، لذا يتم اعتماد الصيغة غير المباشرة في الحوار. كما يجب على الباحث أن يتحلى بالحكمة والدبلوماسية في التعامل مع الأفراد الذين يتم استجوابهم، وبراعي المستوى العلمي والثقافي للشخص المستجوب...

تشكل مرحلة العمل الميداني، أكثر مراحل إنجاز الدراسة امتدادا في الزمن، لأنها تتطلب زيارات متكررة بهدف الوقوف على موضوعية النتائج المحصل عليها. وفي حالة المقارنة بين مجموعة من المجالات، يجب الحرص على إتمام العمل الميداني بكل مجال قبل الانتقال إلى المجال الجغرافي الثاني، وذلك من أجل الحفاظ على التواصل والألفة الميدانية مع الفاعلين المستجوبين.

2.4. اختيار العينة المستجوبة

وتوجد عدة طرق لاختيار العينة منها:

- **عينات بالاختيار السهل**: إذ يتم اختيار العينات التي يسهل الحصول عليها دون مشقة.

- **العينات الهادفة**: إن اختيار هذا النوع من العينات يكون بناء على حكم شخصي ورأي ذاتي، وتعد العينة المختارة ممثلة للمجتمع، علما أن المجتمع يضم أنواع مختلفة من الأفراد إلا أنه يسهل اختيار العينة المطلوبة، وقد تكون نتائج هذه الطريقة جيدة حسب خبرة الباحث وقدرته في اختيار العينات بشكل يمثل هذا التنوع الاجتماعي. وعلى الباحث أن يحدد في المجالات التي تتطلب مسح جزئي نوع العينة المناسبة لطبيعة بحثه.

5. استنباط نتائج العمل الميداني

يتم الاعتماد في هذه المرحلة من البحث على مجموعة من الخطوات المنهجية التي تتماشى ونمط العمل الجغرافي الكيفي الحديث، والتي تتجلى على النحو التالي:

– جرد المعطيات الميدانية المستقاة من دليل الاستجواب المنجز وهيكلتها بداية في مجموعة من الجداول التي تتقاطع فيها المعطيات الكمية بالمعطيات النوعية، وذلك بالشكل الذي يستجيب لتحليل محاور الإشكالية. وتفرز هذه المرحلة مجموعة من المعطيات الميدانية التي تستخدم في استخلاص مخزون خرائطي واستباناتي، يجعل من نتائج الدراسة الجغرافية استجابة لتساؤلات البحث العلمي الموجه للتدخلات العمومية.

1.5. رسوم بيانية واصفة للجداول الإحصائية

تعتمد الجغرافيا –كباقي العلوم الإنسانية – في وصفها وتحليلها للظواهر البشرية، الاقتصادية والطبيعية على علم الإحصاء الذي يهتم بجمع المعطيات وترتيبها وتلخيصها ثم محاولة إعطاء تفسير أو تأويل لها. فأول خطوة يقوم بها علم الإحصاء لدراسة ظاهرة من الظواهر، هي تجميع أو جمع المعطيات حسب معيار محدد سلفا، وغالبا ما تكون هذه المعطيات كثيرة ومشتتة، صعبة القراءة والاستغلال. أما الخطوة الثانية فهي ترتيب أو تصنيف هذه المعطيات حسب معايير الدراسة في جداول سهلة القراءة وهي " الجداول الإحصائية ". ولتوضيحها أكثر يمكن تحويلها إلى مبيانات حتى يسهل التوصل إلى الخلاصات والاستنتاجات والتفسيرات، والتي تسمح بتنبؤ تطور الظاهرة مستقبلا. لذا فالمبيان هو ترجمة مرئية للجدول الإحصائي، يمكن من إبراز خاصية أو وثيرة تطور لظاهرة ما والتي يصعب استكشافها عن طريق الجدول فقط... المبيان شكل من أشكال التعبير الجغرافي، بواسطته تتحول الأرقام والنسب المئوية إلى معلومات وحقائق واضحة ومشخصة، تسهل عملية الملاحظة والمقارنة والتحليل واستخلاص النتائج.

تختلف المبيانات حسب طبيعة المعطيات التي تمثلها خلال فترة زمنية معينة، فقد تكون أعدادا أو نسبا مئوية، وقد تمثل وضعية قارة أو متطورة. وتختلف تقنية التعبير البياني باختلاف أنواع المبيانات، بحيث ينفرد كل نوع بميزات خاصة.

– **المنحنيات أو المنحنى البياني:** يفيد هذا النموذج عادة تطور شيء معلوم خلال فترة زمنية معينة، وتكون السنوات مثبتة على الإحداثي الأفقي (الأفصول) وتوضع القيم على الإحداثي العمودي (الأراتيب). ويعتبر هذا النموذج أدق وأهم أنواع المبيانات، لكونه أكثر ملائمة لإبراز عدة معطيات مجتمعة في رسم واحد، حيث يعبر كل منحنى على معطى محدد، مما يسمح بالمقارنة بين المعطيات الممثلة وما عرفته من تطور خلال نفس الفترة. وتجنبا للتداخل فيما بينها، وتسهيلا لعملية المقارنة، يستحسن ألا يتعدى عدد المنحنيات أربعة على الأكثر.

– **الأعمدة البيانية:** وتدعى كذلك بـ مخطط بالأشرطة / بالأعمدة، وتنقسم إلى نوعين: **الأعمدة الأفقية:** من أكثر أنواع المبيانات إستعمالا، نظرا لسهولة إنجازها ولكونها تسمح بمقارنة عدة معطيات غير متجانسة. ثم **الأعمدة العمودية:** تساعد على توضيح الظواهر المزمع مقارنتها خلال فترة زمنية معينة.

– **الدوائر البيانية:** يطلق عليها كذلك المخطط القطاعي، وتستعمل هذه النماذج من المبيانات لترجمة توزيع المعطيات المعبر عنها بالنسب المئوية، وهي أهم طريقة لتوضيح النسب المئوية وتبيان أجزاء متكاملة لوحدة معينة. وأنواعها هي: دائرية أو نصف دائرية عادية أو مجسمة.

2.5. تعبير خرائطي مجسم لنتائج البحث الميدانية

الخريطة هي تمثيل رمزي لمنطقة محددة أو جزء معين له حدود معينة، حيث تصف الخريطة معالم داخل منطقة محددة. وهي أيضًا تصوير رمزي لمنطقة توضح العلاقة بين العناصر الموجودة داخلها. فيمكن أن توضح تضاريس أو مناخ منطقة معينة وتوزيع السكان في المناطق على حسب التضاريس والمناخ وهكذا، كما يمكن أن تقارن ظواهر سوسيواقتصادية ومجالية مستنبطة من نتائج البحث الميداني. وتُرسم الخريطة على سطح مُسطح وتكون بمقياس معين يحدد نسبة الأبعاد. فالخريطة هي صورة هيئة الأرض وشكلها كما هو الحال في خريطة العالم الجغرافية. وتتميز الخرائط عن الصور الجوية أنها تحتوي على معلومات وتوضيح أكثر للطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة. ومع التطورات في عصرنا الحالي يمكن أن تُرسم الخرائط بأنظمة المعلومات الجغرافية الحاسوبية. والخريطة هي تمثيل هندسي لحالات وأوضاع نسبية للظواهر، وسواء كانت الخرائط مطبوعة أو على شاشات الحاسوب.

3.5. تحليل النتائج والاستنتاجات

يقع بعض الباحثين في خطأ بحيث لا يفرق بين النتائج والاستنتاج، **فالنتائج** تعني ما توصل له الباحث عند إجراء عمليات التحليل للبيانات والمعلومات التي تم جمعها، أما **الاستنتاج** فيعني ما استطاع الباحث معرفته من خلال الاستنباط والاستقراء لكل فصول البحث، فيعمل الباحث على استعراض مجموعة من النقاط ويفضل أن تكون متسلسلة حسب الفصول، ويجب أن تكون تلك الاستنتاجات منطقية وواقعية وليست عملية اعتباطية، لابد أن تكون مطابقة للحقائق الواردة في فقرات البحث، فكثيرا ما يعمل الباحث على تدوين استنتاجات لا علاقة لها بمحتوى البحث وهذا غير جائز. ومن الأمور الأخرى التي تأخذ بنظر الاعتبار لا يجوز كتابة الاستنتاجات من مصادر وتدوين تلك المصادر، بل يجب أن تكون من استنباط الباحث ودون الاعتماد على مصادر ولا يجوز كتابة المصادر في الاستنتاجات والتوصيات.

6. استمرارية تلاقح البحوث الجغرافية

يتميز البحث الجغرافي بعدة خصائص تجعل الباحث في تجدد مستمر:

– أن المنهج المعتمد لا يبقى ثابتا بمرور الزمن، فلابد من ظهور مناهج جديدة تتصف بخصائص تتناسب مع التطورات التي تشهدها الحياة بصورة عامة والعلمية بشكل خاص.

– كل بحث علمي يعد مؤقتا ولا يمكن اعتباره النتاج النهائي للبحث العلمي، وذلك لتجدد التقنيات والأساليب المعمول بها، وهذا يدفع بالباحث أن يستخدم ما استجد من أساليب في التحليل الجغرافي. ويظهر ذلك واضحا من خلال المقارنة بين البحوث في الوقت الحاضر والفترات الماضية، حيث يوجد فرق كبير بين تلك البحوث من حيث الأسلوب والتقنيات المستخدمة في الفترتين.

– تعديل المناهج بشكل مستمر بما يتناسب والتطورات والتغيرات التي يشهدها واقعنا المعاش، وقد يتم رفض بعض المناهج لكونها غير مناسبة وتستبدل بأخرى أكثر تطورا وتتماشى مع متطلبات البحث العلمي المتجدد والموجه للتدخلات العمومية، ففي الوقت الحاضر لا يقبل بمناهج الجغرافيا الوصفية لكون الحياة تتجه إلى ربط العلم بالعمل، والتوجه نحو الوصف والتطبيق.

– تغيير المناهج بتغيير المحتوى العلمي وتقدمه، وهذا الشيء لا يقدره إلا ذوي الاختصاصات الدقيقة، لذلك بدأت الدراسات الجغرافية تتجه نحو تثمين الممارسات العلمية الدقيقة المتفاعلة مع الواقع المعاش بشكل يكسبها قيمة مضافة في تدبير الشأن السوسيواقتصادي.

نستخلص مما سبق، أن الباحث في علم الجغرافية الحضرية يرتكز على مجموعة من الوسائل والدعامات المنهجية التي تجعل من بحثه وعمله ورقة في يد المتدخل المؤسساتي والمدبر المنتخب وكذا الفاعل التقني. لذلك وجب الالتزام بـ:

- الانطلاق من نتائج الدراسات التي سبقت البحث المنجز من طرف الباحث، حتى يتم التنظير لفرضية العمل.
- الارتكاز على عمل بيليوغرافي معمق يلم بموضوع الدراسة من كافة الجوانب والتخصصات.
- إعطاء أهمية بالغة للعمل الميداني والذي يشكل خصوصية نتائج البحث الجغرافي البشري.
- ضرورة صياغة استنتاجات واضحة وعلمية تساعد الفاعل المتدخل على تحقيق التوافق بين الممارسات العمومية والاحتياجات الضرورية للفاعل الاجتماعي/ الساكن.

ببيليوغرافيا:

1- BARROU B., 2005,« Fès, de la gestion urbaine normative a la gouvernance », publications de L'Institut National d'Aménagement et d'Urbanisme, 399 p.

2- FEJJAL A, 1993, « Fès: Héritages et dynamiques urbaines actuelles", Doctorat d'Etat, Université de Tours.

3- البوعيشي أمينة، 2004، "الهوامش الحضرية قيد التأهيل بفاس: إعادة تشكيل المدينة، الممارسات الحضرية و بدائل التهيئة"، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب و العلوم الإنسانية – فاس.

4- المذوبية السامية للتخطيط.

5- محاضرات بكلية الأداب و العلوم الإنسانية – فاس – سايس، تخصص الجغرافية الحضرية.